سن الفيل

أحمد عبد العاطي نور

سن الفيل

مجموعة قصصيّة

Qindeel | قنديل

The Elephant Tusk

Ahmed Abdulati Noor

A Collection of Stories

سنّ الفيل

مجموعة قصصيّة

أحمد عبدالعاطي نور

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-6303739 تاريخ 2018/9/10

ISBN: 978 - 9948 - 39 - 704 - 5

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2018

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر 2018 م – 1440 هـ

أُنجزت هذه المجموعة القصصية بإشراف

القاص إسلام أبو شكير

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

المحتويات

مقدمة..... 11

براجيل 13

حامد 19

بعد عام..... 27

زَوج اضطراري 33

سنّ الفيل 41

دواء 47

فلفل أحمر 49

بورتريه 55

ألوان باهتة 61

حذاء عسكري 65

داء 71

الساحر 73

يمضي السكون 79

كهلاً وسهلاً 83

مشروع نابض.. وجيل واعد

منذ إطلاق «**برنامج دبي الدولي للكتابة**» عام 2013، تحت رعاية سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس **مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة**، كان علينا مضاعفة الجهود؛ لنكون أكفاء لتحمُّل مسؤولية إعداد جيل من الكتَّاب الشباب لحمل مشعل الفكر، وليصبحوا في مصاف الكتَّاب العالميين، وقد آلينا على أنفسنا أن نذلِّلَ كلَّ العقبات التي تحُول دون نجاح هذا المشروع الحيوي النابض، الذي يعكس وجهاً حضاريّاً آخر من وجوه دبي.

وها نحن ذا، نرى عشرات الكُتَّاب الشباب الذين تخرجوا في البرنامج في مختلف حقول الكتابة، حيث الرواية والقصة والترجمة والكتابة للأطفال واليافعين، والأمل معقود باتجاه فنون كتابية أخرى؛ ليكتمل المشهد الإبداعي مع جيل موهوب يتقن فنون الكتابة الاحترافية، حسب منهج علمي ولغوي، وتقنية صحيحة، جيل تدرَّب على أيدي أساتذة أكفاء، نقلوا له المعارف والخبرات والمهارات اللازمة؛ لتكتمل دورة المشهد الاحترافي، والهدف الكبير أن نصل بهم إلى العالمية.

لقد أعطى برنامج دبي الدولي للكتابة للشباب الموهوبين إبداعيّاً، جرعةً من الأمل ليحقّقوا حلمهم، ولم نكتفِ بتدريب الموهوبين داخل الإمارات؛ بل انطلقنا عربيّاً عبر ورشٍ تدريبيَّةٍ في تونس ومصر والكويت، متجاوزين الحدود الجغرافية للوصول إلى الشَّباب العربي في بلدانهم، وإطلاق ورشات تدريبية مع مدربين محليين مشهود لهم بالكفاءة؛ لتصبحَ الفائدةُ من البرنامج أوسعَ وأشمل.

لقد كان هدف البرنامج منذ البداية، دعم المؤلفين والوصول بهم إلى العالمية، في شتَّى مجالات المعرفة من العلوم والبحوث إلى الأدب، وقد لمسنا نتائج طيبة خلال الورشات الماضية؛ فقد فازت كتب من البرنامج بجوائز مرموقة، وبات يُنْظَرُ إلى هذه التجربة بكثير من التقدير والاحترام داخل الإمارات وخارجها. وها نحن اليوم ندفع بالكاتب أحمد عبدالعاطي نور إلى الساحة الثقافية، عبر مجموعته القصصية هذه التي تجوب زوايا الروح والنفس بلغة مبسطة، وقد أنجزها خلال البرنامج، ونحن على يقينٍ بأنها ستكونُ موضعَ تقديرٍ وترحيبٍ من القرَّاء والنقَّاد والمهتمِّين.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

براجيل

أكمل عامه الثاني قبل أن يذهب في إجازته السنوية، وبعد انتهاء اليوم يمرّ كالعادة ليأخذ فناجين القهوة والكؤوس المنتشرة بين حجرات الساحة الستّ عشرة لتنظيفها، مروراً بالطابق العلوي وبراجيله المنتشرة كحصون القلعة الشامخة.

أصابه بعض الضيق من صاحب إحدى الحجرات، إذ لم يترك له الباب مفتوحاً، كما لم يعطه المفتاح، رغم أنه أصبح مصدر أمان وثقة لدى الجميع، بل ترك له الكأس ملقى أمام الباب.

أخذ الكأس. انتبه لرائحة زيوت الألوان القوية وهو يمشي باتجاه المطبخ قائلاً:

ـ يبدو أن بعض اللوحات الجديدة لطخت ثيابي.

خلع ثيابه ليتأكد.. لا شيء.

هنا تذكر قبل عامين، قبل أن يأتي إلى بيت الرسامين أو ما يسمى (رواق الفنون) بمدينة الشارقة، حين كان يعمل بشركات الإنشاءات التي قضى فيها ستة عشر عاماً بمدينة دبي بين أبراجها الشاهقة وواجهاتها الزجاجية والحياة العملية البحتة.

هنا يرى أشياء مختلفة.. ضيوفاً تعددت جنسياتهم، ضحكات، تصفيقاً، إطراءات، صوراً ولقطات مرحة، ألواناً زينت طبيعة العمل، مشربيات وأبواباً خشبية أكدت الطابع الخاص للمكان.

نسي الأمر وبدأ بغسل الكؤوس والفناجين، حتى شعر كأن أصابعه علقت بشيء دهني. استشاط غضباً حين رأى ذلك الكأس لصاحب الغرفة المغلقة. لقد تلطخت أصابعه. حتى فرشة الغسيل لم تنج من ذلك.

حاول إزالتها لكنه فشل، بينما يحدق فيما فعلته أنامله على جنبات الكأس الزجاجية وهو يتابع انزلاقها بحركات عشوائية دائرية فيستحضر ذكريات الطفولة مع الرسم.

في الصباح الباكر قام بإخفاء الكأس داخل غرفته، ثم ذهب يباشر عمله إلى أن يأتي المساء ليرى صاحب الكأس.

انتصف النهار وبدأ الزوار بأخذ أماكنهم، وكذلك الرسامون وفي جوارهم محسن صاحب الكأس المدهونة والحجرة المغلقة.

قرر إقبال اقتناص بعض النظرات واختلاس جزء من الوقت في متابعة محسن. في حين أنه فوجئ به يسأله عن كأسه. تلعثم في الرد عليه وبلّغه بلغة ركيكة:

ـ هذا كب خراب داخل كشرا..

أي أن الكأس كُسرت وألقاها في صندوق الزبالة.

طالبـه محسـن بـأن يدخـل الغرفـة ويأخـذ مـن خزانتـه كوبـاً جديـداً، ويحضـر مشـروبه السـاخن.

بـدأ الباكسـتاني يكتشـف تفاصيـل الحجـرة، وشـاهد بشـكل حـي الحركـة التـي قضـت علـى أكوابـه الزجاجيـة، حيـن يضـع محسـن فرشـه داخـل الكـوب وهـي ملطخـة.

رأى تعاملـه مـع ضيوفـه واختـلاف لهجاتهـم وثقافاتهـم مـن خـلال ألوانـه ولوحاتـه، وكذلـك بعـض الحلـوى العراقيـة التـي يأتـي بهـا دائمـاً عنـد قدومـه.

حينئـذٍ تذكـر عندمـا كان فـي منزلـه فـي بيشـاور ينحـت علـى الأشـجار وجـوه أصدقائـه، وحيـن كان يطـرده والـده مـن البيـت بسـبب تخريبـه جـدران البيـت بشـخبطته وألوانـه.

شـعر مـن تعامـل محسـن مـع ضيوفـه أن باسـتطاعته التقـرب إليـه. ربمـا يعلمـه الرسـم، ويكتسـب مـا افتقـده يومـاً مـا..

لكنها محاولات يفسدها الخوف دائماً..

أتيـح لـه دخـول الحجـرة وتنظيفهـا والتخلـص مـن العبـوات الفارغـة والفـرش الهالكـة، وباتـت العلاقـة بينهمـا سلسـة، مـا جعلـه أكثـر حضـوراً بأسـئلته المتكـررة عـن الرسـم.

نهايـة اليـوم هـي بدايـة لإقبـال يسـتغلها أثنـاء تنظيـف الحجـرة، فيظـل يتأملهـا.. يدقـق فـي لوحاتهـا. يمسـك فرشـاة الرسـم، يلـوّح بهـا فـي الفـراغ. يجلـس علـى الكرسـي أمـام حامـل الرسـم.

يسرح بتفاصيله ممسكاً ببالتة الألوان كأنه يجهز نفسه لصورة فوتوغرافية.

وحين أفاق من أحلامه التي رسمها أخذ كؤوسه وأغراضه، وخرج بخيبة أمل وقناعة أنه ليس إلا عامل بوفيه.

❋❋❋

بعد مضي ثلاثة أعوام أتقن فيها إقبال اللهجة العراقية بعض الشيء، وصارت علاقته بمحسن وطيدة، قرر أن يغادر إلى بلاده ملبياً نداء والديه. ودّعه محسن بمشاعر فياضة متمنياً له التوفيق.

وصل إلى مطار باجا خان بمدينة بيشاور مرحباً بعودته، وحين مروره بأجهزة الكشف على الحقائب استوقف الضابط شيء ما في حقائبه، فاستدعاه لفتحها، ليجد فيها أنابيب ألوان شبه فارغة، وبعض الفرش المكسورة، وعدداً من الفناجين والكؤوس الملطخة بالألوان. لم يجد إقبال رداً على استفسارات الضابط وسبب اقتنائها ونقلها من بلد لآخر. ووصل الأمر إلى أنه شك في أنه يحمل ممنوعات داخل تلك الأنابيب والكؤوس.

بعد محاولات عدة لتفسير الموقف خرج إقبال بعدها من المطار متجهاً لبيته.

بعد أيام دامت فيها المراسلات بينه وبين محسن للاطمئنان والترحاب، اختفى إقبال دون سابق إنذار أشهراً عدة حاول

خلالها محسن سؤال أزهر العامل البديل عنه، لكن الأخير لا يعرف عنه شيئاً.

رسالة عبر الواتس آب من إقبال بعد مضي عام ونصف:

مجموعة صورة تتقدمها صورة لعنوان مجلة عن معرض فني باسم إقبال، ولوحات فنية للشيخ زايد، وأخرى لمحسن، وغيرها لمناظر عصريّة لمدينة دبي، وأيضاً مجموعات عن التراث الإماراتي، ولرواق الفنون وحجراته وساحته، ولوحة للكؤوس المدهونة التي خلفها محسن طوال تلك الفترة..

حامد

تحركات غريبة خارج المكتب.. يبدو أن شيئاً ما حدث..

أجراس التليفونات تدوّي. طرقات النعال السريعة فوق الأرض الخشبية.. أصوات نداءات الموظفين بين المكاتب.

رفع خالد سماعة التليفون يطلب عامل البوفيه ليستفسر عما يحدث.. لكنه لا يرد..

قام متجهاً إلى الخارج ليرى وجوهاً شاحبة، وعيوناً جاحظة، وتجمعات بالطابق الأرضي ناحية السلم.

ـ ماذا يحدث؟

ـ وجدوا عم حامد داخل حجرة البوفيه ميتاً!!!

قال شريف..

ـ ماذا تقول؟

ـ منذ عشر دقائق، عند مرور الأستاذ محمود بجوار البوفيه، وجده على الكرسي بلا نفس، ثم صرخ في الموظفين فتجمعوا حوله.. هكذا قال!!

نـزل خالـد إلـى الطابـق الأرضـي. تجمـع النـاس أمـام غرفـة عامـل البوفيـه فـي محاولـة لاكتشـاف الأمـر، أو لفعـل شـيء قبـل فـوات الأوان.

دخـل الغرفـة، ووجـد بعـض زملائـه يقـوم بتحريكـه فـي محاولـة لإنعاشـه حتـى تأتـي سـيارة الإسـعاف، وللتأكـد ممـا إذا كان قـد فـارق الحيـاة أم لا.

وقـف خالـد ينظـر لصديقـه فـي حيـرة. لا أثـر لدمـاء. لا طلقات رصـاص بجسـده. لا زجـاج مكسـوراً، ولا أي شـيء يـدل علـى أن الـذي حـدث جريمـة مدبرة.

وضـع يـده علـى رقبـة حامـد يجـس نبضـات قلبـه، وتـارة يفتـح عينيـه الغائرتيـن، لكنـه استسـلم للأمـر بإعلانـه تأكيـد الخبـر.

مضى الأمر، وجاءت سيارة الإسعاف ونقلت الجثة.

مرت ثلاثة أيام، وأصبحت وفاة عامل البوفيه مجرد خبر.

ظـل يفكـر كثيـراً فـي الأمـر داخـل مكتبـه، وبخاطـره آخـر لحظـات مـرت بحامـد. آخـر كلماتـه معـه كانـت توحـي بـأن شـيئاً مـا سـيحدث لهـذا الرجـل الأربعينـي.

أمسـك بـرأس صديقـه شـريف وضمـه إليـه هامسـاً.. ثـم خرجـا.

تذكـر أنـه لـم يـر المنديـل الـذي يضعـه حامـد دائمـاً علـى ياقـة قميصـه، رغـم أنـه كان يرتديـه فـي الصبـاح قبـل وفاتـه!!!

أين ذهب؟

لـم يسـتغرق الأمـر طويـلاً. سـأل خالـد مسـؤول الحسـابات بالشـركة إن كان حامـد قـد طلـب منـه سـلفة ماليـة لحيـن أخـذ الراتـب أم لا. أخبـره المحاسـب أنـه بالفعـل طلـب ذلـك، ولكـن تـم رفـض طلبـه بحجـة عـدم توافـر المبلـغ، وأخبـره أيضـاً أن حامـد ذهـب بعـد ذلـك إلـى مكتـب الأسـتاذ محمـود مسـؤول شـؤون الموظفيـن.

علـم خالـد مـن شـؤون الموظفيـن أن حامـد طلـب إجـازة طارئـة لمـدة عشـرة أيـام، وتمـت الموافقـة عليهـا قبـل وفاتـه بيوميـن.

لـم يهـدأ.. أراد أن يبرهـن لصديقـه شـريف أن الأمـر لـم يكـن طبيعيـاً.

فـي اليـوم التالـي وعنـد الصبـاح دخـل خالـد مكتبـه، وانتظـر، ومـا أن وصـل حتـى قامـا وتـركا المكتـب قرابـة سـاعة، ثـم عـادا.

تحدث خالد قائلاً:

ـ لا بد أن نجد المنديل يا شريف؟

ـ دعنا نفتش في حجرته بعد انتهاء ساعات العمل.

انتظـرا حتـى ذهـب الجميـع، ودخـلا الحجـرة فـي محاولـة لإيجـاد المنديـل أو أي شـيء آخـر يسـاعدهما علـى إيجـاد الحقيقـة.

وجد شريف منديلاً مبلولاً داخل سلة المهملات وأعطاه لخالد:

ـ هذا المنديل؟

ـ نعم هو.. الغريب أنه مبلول إلى الآن!! ولكن ما هذه البقعة الصفراء؟

قرب خالد المنديل لأنفه وشمه:

ـ رائحة هذا البلل غريبة. تصيب بالغثيان رغم أنها بدأت تتلاشى.

ـ هل تفكر فيما أفكر فيه؟

ـ وبماذا تفكر؟

ـ أتوقع أن تكون هذه آثار مادة سامة.

ـ ربما يكون هذا صحيحاً.. ولكن لا يعقل أن يكون قد انتحر!!!

ـ وممن الممكن أن يكون قُتل...؟؟

ـ قتل.. قتل.. ولماذا؟ لم أره من قبل في خصومة مع أحد رغم كثرة أحاديثه وجلساته التي تمل من كثرة ثرثرته، وحواراته المعقدة، وطباعه السمجة.

ـ كيف لم تعثر الشرطة على هذا المنديل؟ هل لأنهم اعتبروا الحادثة وفاة طبيعية؟

ـ أتفكر بتقديمه للشرطة؟

قال شريف..

ـ لا أعرف.. ربما يجب علينا تقديمه، ولكن ليس الآن.

عادا إلى مكتبهما بعد وقت قصير من المناقشة. وسادت حالة من الصمت في المكان.

في اليوم التالي قابل خالد الأستاذ محمود مسؤول شؤون الموظفين، وسأله عن اللحظة التي رأى فيها حامد، بينما حاول الأخير أكثر من مرة التهرب من الإجابة عن بعض الأسئلة قائلاً:

ـ دائماً ما يأتيني يطلب إجازة. يفعل ذلك بشكل مستمر، وعند رفض طلبه يذكرني ببعض الأشخاص الذين تتم لهم الموافقة في الحال، والتطرق للمحسوبية والطبقات. كان كذلك دائم التذمر بسبب عدم توظيف ابنه، حتى أنه ذهب أكثر من مرة يشكو للمدير العام.

وأضاف:

ـ رأيته يوماً خارجاً بحقيبة متوسطة للأستاذ حسين، يمشي خلفه حتى سيارته. أظن أن الأمر تكرر مرات عدة.

ـ ولكن ما علاقة الأستاذ حسين مسؤول الحسابات بعامل بوفيه؟

ـ لا أعلـم. كل هـذا كان قبـل الأخبـار التـي تـرددت داخـل الشـركة عـن وجـود أشـخاص يتقاضـون مبالـغ ماليـة مقابـل بعض الخدمـات بطـرق غيـر رسـمية. بعدهـا أشـيع عـن طريـق حامـد أن حسـين هـو مـن يحصـل علـى تلـك الرِّشـى.

قدم خالد الشكر له، وجلس ينظر في الأمر.

ذهـب بعـد فتـرة الاسـتراحة إلـى مكتـب الحسـابات، وجلـس يتحـدث بشـكل ودي مـع الأسـتاذ حسـين عـن حامـد، وكيـف أن هـذا الرجـل مـات ولـم نعـرف شـيئاً عـن سـبب موتـه المباغـت، وعـن حالتـه الماديـة، وابنـه الـذي ظـلّ يصـرخ كثيـراً حتـى يحصـل علـى توقيـع الأسـتاذ محمـود لتوظيفـه بالشـركة.

قاطعه حسين قائلاً:

ـ لكنـه رجـل لا يعـرف كيـف يحتـرم الآخريـن، ولا يجيـد التعامـل بشـكل لائـق.

ـ لماذا تقول هذا الكلام الآن؟ لم أرَ منه ما تقول.

ـ أنـا أعرفـه جيـداً.. إنـه فـي الشـركة منـذ ثلاثـة عشـر عامـاً. فـي الوقـت القريـب بـدأت علاقاتـه تحتـدم مـع بعـض الأشـخاص، وكثـرت مشـاكله بسـبب نقلـه الأخبـار والـكلام مـن هنـا لهنـاك. آخرهـا كانـت منـذ عشـرة أيـام عـن محمـود مسـؤول شـؤون الموظفيـن، وإدخالـه بعـض أقاربـه وتوظيفهـم، وأنـه يبـع عقـود العمـل بمبالـغ كبيـرة لأشـخاص خـارج الشـركة، ومـن ثـم تدخـل المديـر العـام وأنـذره أكثـر مـن مـرة.

غـادر خالـد مكتـب حسـين، وعنـد مغادرتـه لاحـظ بقعـة صغيـرة علـى سـوار قميصـه شـبيهة بمـا كان علـى المنديـل.

حكى خالد ما حدث لصديقه.. قاطعه شريف:

ـ إذاً هو من قتله.

ـ لكـن هـذا ليـس دليـلاً. فحجمهـا لـم يكـن كافيـاً للتأكيـد على أنهـا مماثلـة تمامـاً، ثـم إن الحادثـة مـن ثلاثـة أيـام، ولا يعقـل أنهـا مـن المـادة نفسـها.

ـ أنـا أشـك فـي محمـود؛ فهـو أول مـن أخبـر النـاس بالحادث، وكان فـي الحجرة.

بعـد نهايـة اليـوم ذهبـا للمكتبيـن، وبعـد تفتيشـهما عثـر خالـد علـى عبـوة صغيـرة بهـا مـادة لهـا نفـس الرائحـة التـي اشـتمها علـى المنديـل فـي مكتـب حسـين.

اتصـل خالـد بالشـرطة وأخبرهـا بمـا حـدث، بعدهـا تـم القبض علـى كل مـن محمـود وحسـين للتحقيـق معهمـا فـي ملابسـات الحـادث.

بعـد أيـام عـدة مـن التحقيقـات واسـتمرار حبسـهما، بـدأت الأخبـار تتـداول داخـل الشـركة عـن دخـول كل منهمـا فـي حالـة اكتئـاب وإنـكار لمـا نسـب إليهمـا وأحدهمـا قـرر الامتنـاع عـن الأكل.

بعد عام

بعد يوم من الآن ستكمل هذه الغرفة عامها الأول وهي موصدة، لا يجرؤ أحد على إعطائها متنفساً تنفيذاً لتنبيهات صاحبة الأربعين عاماً ذات الملابس السوداء، فيما يحاول دائماً أبناؤها معرفة السبب، وخاصة الابن الأوسط الذي يسعى لاكتشاف ما افتقده من العلاقة الأبوية الروتينية التي عايشها مع والده قبل رحيله.

كانت ليلة أشبه بملجأ لفاقدي السمع.

تحركات بالإشارة، وردود أفعال تترجمها العين، حتى التلفاز مقبور داخل خزانته بمُلاءة بنية، إلا مذياعاً أحادي الإشارة محبوساً داخل هذه الغرفة تتوالى فيه تلاوة القرآن في تسلسل منتظم.

كل ما يفكر فيه هذا الشاب هو: هل هذه الليلة ستكون الأخيرة كما وعدتنا منذ عام ناقص؟

وعمّ سيبحث؟ ماذا سيجد؟ هل ستتاح له الفرصة لتحقيق مراده؟ وماذا لو لم يجد شيئاً؟

تمر الساعات وهو يتخيل صناديق ورقية، ألبومات صور، مذكرات خاصة، حافظة نقود تمنى اقتناءها، وربّما الوصية التي كتبها والده.

كلها أشياء ربما ترضيه.

***

صباح المتمم للسنة الصامتة، يستيقظ على أصوات النساء اللائي جئن يشاركن والدته هذا اليوم. هذه الأصوات التي خلقت حياة جديدة بعد فترة إنعاش كادت تقتلهم.

وجوه كالحة.. دموع مزيفة.. حوارات وأحاديث لا تمت بصلة لطقوس ذلك اليوم.

وجه خالطه الشحوب فزاده عمراً فوق عمره. تتوسط الأم تلك النسوة، وكأنها تعطي لهم أذنيها لتلتقط ما يلهب مشاعرها، ويوقظ حزنها. تلك الملامح التي ذبلت خلال العام.

الصوت الذي بحّ من صراخ وبكاء يتواليان يوماً بعد يوم منذ فراق الأب. تلك الروح التي انطفأت بهجتها بعد رحيله.

انتصف اليوم وانتهت معه تلك الطقوس الرتيبة، فيما ظل سالم يتابع تحركات والدته متمنياً الخلاص.

بينما تجرّ هي خلفها مشاعر شاخت بين طيات وجهها الأسمر، وكلما اقتربت من باب الغرفة يقفز شوقاً ثم يراها تتراجع فيُحبط. كررت فعلتها مرات عدة.

وبعد يأس حاصره نادت عليهم، ليقوم محمد الذي يكبره بخمسة أعوام، متردداً بفتح باب الغرفة، بينما تراجعت الأم بعيداً.

ذهل سالم من الرائحة التي ظلت عالقة بالغرفة منذ زمن، ومن تفاصيل وملابس ومظلة يدوية سوداء معلقة خلف باب الغرفة. لم يتغير شيء إلا الأتربة التي غطت كل شيء.

حتى القارئ بالراديو هو نفسه، الآن يتلو السورة التي ودّعت جثمان والده من قبل.

الكلّ بانتظار الأم تدخل.

ظل الجميع داخل الغرفة يتذكرون لحظات مضت، وليتها لم تنته.

يقف سالم يتفقد بنظره أركان الغرفة محدثاً نفسه:

ـ هنا كان يضع نظارته وهاتفه المحمول ومفاتيحه الخاصة، وهناك كنت أقف لأوقظه، وهنا.. وهنا..

سلسلة من الأحداث تتوالى وهو يتابع أمه تستنشق ملابسه ثم تحدق فيها من بعيد وكأنها تنتظره.

تضع يديها تتحسس مكان قلبه لعلها ترجعه.

أخواته غرقى بين صوره وذكرياتهم معاً.

اتجه نحو مكتب صغير يتوسط جداراً خالياً.

أوراق ومجلدات ملامحها قديمة، ورائحتها نفاذة كرائحة التراب المبلل.

كراسات تهالكت تظهر منها كلمات كتبت بخط عريض «الصف الثاني الإعدادي».. وأخرى للثانوية.. وغيرها للجامعة.. ويتخلل كل واحدة منها بعض الرسومات التي اختلطت ألوانها حتى محت الصورة الأولية لها.

جذبه ما كتب عليها الصف الثاني الثانوي. ربما لأنها توافق عمره.

أخذ يقلب صفحاتها متعجباً مما يرى. دقة الكتابة. تنسيق الأسطر. التوقيع أسفل كل صفحة. نمط التفكير في ذاك العمر. كأنه هو من كتبها.

ازدادت حرارة قلبه كلما تابع التصفح بين سعادة هذا التشابه الذي ضيعه الفراق.

لم تخلُ أركان تلك الصفحات من القلوب التي رسمت، وبداخلها حروف رمزية بعضها بقي والآخر لم تظهر معالمه كاملة، ولكنها تشير إلى قصة مبكرة وطويلة بين والديه قبل زواجهما.

صفحات متتابعة سطرت لسالم العلاقة التي كان يتمناها مع والده، ولكنها ظهرت بعد فوات الأوان.

ربما كان من الأفضل ألا يقرأ تلك المذكرات. هكذا يحث نفسه وهو يتابع الكشف عن بقية الصفحات.

المـواد المفضلـة.. الألعـاب المحببـة.. حتـى كتابـة الجمـل المهمـة بلـون وخطـوط مميـزة.

هل هذا كافٍ، أم يضيف إلى حسرته المزيد؟

تقترب نهاية الصفحات.

صفحـة تتوسـطها كلمـة «أحـلام» كتبـت بخـط كبيـر داخـل إطـار بيضـاوي.

ووسط ذهوله يتابع قراءة ما تبقى..

المهنـة المفضلـة.. صفـات فتـاة الأحـلام.. رسـمة لشـعار ناديهمـا المفضـل.. نسـخة كاملـة يـرى فيهـا نفسـه.. إلـى أن ينتهـي إلـى «اسـم أول مولـود لـي»..

سـالت دموعـه بغـزارة حتـى عـلا صـوت نحيبـه. انتبهـوا لبكائـه الصـارخ، ولكـن سـرعان مـا اندمـج كل واحـد فـي مصيبتـه، ودون استفسـار عـن سـبب بكائـه القـوي.

خرج الجميع عدا سالم.

وحيـداً بعـد خروجهـم. صامتـاً يحـدق فـي هـذه الصفحـة حتـى أغرقهـا بدموعـه. يتأمـل اسـمه الـذي كتـب منـذ خمسـة وعشـرين عامـاً.

مـا قصـة هـذا الاسـم؟ ولـم أنـا؟ وكيـف وأنـا الثانـي فـي الترتيـب بيـن إخوتـي وليـس الأول؟

لقد ماتت بموته..

زَوج اضطراري

ـ س. ف. ن. ي.. الاسم الرباعيّ

الحالة: عزباء

تاريخ الميلاد 4ـ6ـ1985

العنوان ش 7 القاهرة

وهنا انتهت من ملء الأوراق المطلوبة لاستخراج وتجديد البطاقة الشخصية، وحان انتظار المراجعة والتصوير.

أخرجت ورقة صغيرة دونت فيها كيف تقنع المصور بالتريّث عند تصويرها، فهو لا يستغرق أكثر من دقيقة، والأعداد كبيرة.

جاء دورها ودخلت الغرفة..

وبعد محاولات عدة نجحت في إقناع المصور بالانتظار حتى تتمكن من صنع ابتسامة حرمت منها دائماً عند إصدارها البطاقة الشخصية، ومثلها رخصة القيادة، وعضوية النادي.

دائماً ما تضع نفسها ضمن قائمة التعساء في الصور الشخصية، لكنها هذه المرة استطاعت أن تنقذ نفسها وسمعتها السيئة بين زميلاتها.

خرجت ببهجة ملأت وجهها أكثر مما كانت عليه قبل قليل، وعزمت على أن ترتب لهذا اليوم باحتفال كبير ستزول بعده تلك العقدة.

تمر الأيام وتذهب إلى مكان تسليم البطاقات الحديثة بمشاعر جياشة. تقف بانتظار دورها في شباك التسليم.

الجميع يلاحظ الوجه المبتسم، بل يكاد وجهها يتكلم فرحاً، بينما الكثير يقف هائماً لما قد يتكرر لصورة قبيحة تنتظره..

ـ س. ف. ن.

موظف الشباك ينادي عليها. بعيون تلمع ذهبت وأخذت بين يديها البطاقة، ولم تنتظر إلى أن تكشف عن صورتها، وطارت فرحاً لزوال تلك العقدة بصورة أكثر جمالاً ممّا توقعت، ومن اليوم زميلاتها سيكنّ هنّ الضحايا.

***

الساعة السابعة صباحاً تتجه إلى عملها وفي خاطرها أنها ستنتقم من زميلاتها اللاتي طالما سخرن منها ومن صورها الأسوأ حظاً.

اجتمعن حولها بعد صراخ منها تطلبهنّ للتجمهر. لم يخطر ببال إحداهن الأمر، وفي عجالة ذهبن إليها.

بادرت بإبراز الوجه الأمامي لبطاقتها في وجوههنّ، بينما ترى هي الجزء الخلفي للمرة الأولى. سارعن إلى المباركة وإبداء الآراء، وتسابقن بالسؤال عن اسم الموظف ومكانه، في حين وقعت هي في صدمة زالت بها كل مشاعر البهجة والفرحة، حتى أنها لم تعد تشعر بمن حولها ولا تسمع آراءهن.

- م.ع. ل.. اسم الزوج..

الحالة: متزوجة..

تغمض عينيها مراراً، ثم تنظر مرة أخرى لعله أصابها مرض طارئ، فأصبحت ترى تهيؤات تعكر صفوها.. ولكنه الاسم نفسه، الكلمات نفسها..

ارتعشت يدها، وذرفت دموعاً ساكنة، بينما الجميع غرقى..

بعد لحظات شعرت زميلاتها بالتغيير الذي طرأ على وجهها، وبعد سؤالها اقترحن أن تذهب فوراً إلى المكتب وتقديم المستندات المطلوبة للتعديل.

***

ذهبت إلى هناك، لكنها فوجئت بالموظف يخبرها بأنها لن تستطيع التعديل إلا بعد أن تأتي بصاحب هذا الاسم ليقدم إقراراً بعدم صحة هذه المعلومات.

ـ ولكن كيف؟

ـ هذه إجراءات قانونية ولا يمكن التعدي عليها.

بخيوط تائهة راحت ترتب للأمر، والذي ألزمها سوء الحظ بجدارة.

استغلت وظيفتها في الكشف عن هوية هذا المجهول وعنوانه.

إنه يقطن بمنطقة فقيرة عشوائية، وحالته أقل من المتوسط، وتعليمه أيضاً..

بدأت تستعد للبحث عنه. تنازلت عن ملابسها الحديثة وقصات الشعر المختلفة حتى لا يحدث ما يزعجها في تلك المنطقة الفقيرة من كل شيء.

وصلت مكان إقامته وبدأت بالبحث والسؤال عنه، إلا أن الجميع كان ينفر عند سماعهم اسمه، غير أنه موجود في المكان نفسه.

يمر اليوم، يلي الآخر، وما زالت تبحث عنه دون جدوى، إلى أن قابلها رجل عجوز ظهر الزمن بين طيات وجهه وانحنى جسمه ضعفاً. وما إن رآها حتى شك في مظهرها

الـذي لـم يعهـده، وسـألها عـن سـبب قدومهـا فأخبرتـه، ثـم وصـف لهـا مكانـه وحذرهـا مـن توابـع مقابلتـه.

وفـي دقائـق معـدودة وصلـت، وبينمـا تطـرق بـاب البيـت باغتهـا مـن خلفهـا بصـوت ضخـم:

ـ من أنتِ؟

نظـرت خلفهـا لتـرى هـذا الوجـه الشـاحب ذا الهـالات السـود حـول عينيـه، والتـي جعلـت عظـام وجهـه تبـدو واضحـة تناطـح أنفـاً فقيـراً، وأسـناناً داكنـة خـارت قواهـا. يبـدو أنـه يتعاطـى الممنوعـات.

وفي صوت متردد:

ـ أنا.. أنا.. أبحث عن شخص يدعى م.ع.ل.

ـ وماذا تريدين منه؟

أخرجـت مـن حقيبتهـا البطاقـة، وأعطتـه إياهـا دون أن تتكلـم. نظـر إليهـا كأنـه لـم تصلـه الرسـالة، فلـم ينتبـه إلا لصورتهـا معلقـاً بضحكـة خشـنة قائـلاً:

ـ أنتِ محظوظة..

وبابتسامة مصطنعة قالت:

ـ ولكن انظر في الخلف.

ـ رائع.. وأنا كذلك محظوظ..

ثم أطلق ضحكات يعلوها الاستفهام..

ـ أطلب منك أن تأتي معي لتصحيح هذا الخطأ

ـ هل أنتِ متزوجة؟

ـ لا

ـ غداً سوف أنتظركِ بالمكتب لإنهاء هذه المشكلة.. لا تقلقي..

ـ شكراً

مرّ اليوم التالي ولم يحضر، ثم الذي يليه كذلك، وبدأت هي تخسر الكثير من الوقت ممّا أثّر في وظيفتها، ثم تذهب له مرة أخرى، فيعدها، ويخلف، ثم يختفي أياماً، ويظهر.. وظلّ على هذه الحال فترة ليست بالقصيرة.

بدأت تلاحظ تغييرات في سلوكه وهيئته كلما تواعدا للقاء المنشود، حتى صوته أصبح أكثر نعومة، واختفت رائحته المنفرة، وظهر في حديثه الكثير من الاتزان.

تمر الأيام وما زال يكرر فعلته بمبررات مختلفة..

وبعد طول انتظار ذهبت وقد عزمت على أن تسطر لهذا الأمر نهاية حتمية اليوم.. وفي طريقها قابلها ذاك الشيخ العجوز مبتسماً ومرحباً يسألها عن تكرار زيارتها، وعندما أخبرته لم يبدِ لها أي اهتمام، وودعها في هدوء كأنما يوبخها

لعدم الأخذ بنصيحته. لاحظت نظرات الناس لها وكأنهم لم يروها من قبل.

واصلت السير حتى باب البيت الذي ظل يصرخ من طرقها حتى يئست، ثم تركت ورقة صغيرة وذهبت.

«س. ف. ن، ورقم الهاتف، ورسالة صغيرة فحواها أن يسارع بتحديد ميعاد لا يُخلفه»..

بعد أيام وصلتها رسالة منه بتحديد موعد جديد..

أرسلت له بالموافقة متمنية أن يكون الموعد الأخير..

سبعة أيام مضت خلفت وراءها تسعين رسالة في صندوق رسائلها المرسلة له، كما في صندوقه الوارد باسمها، بينما رسائله المرسلة تخطت المئة.

وفي يوم ظل يتصل بها بينما هي لا ترد.

فهي مشغولة بتجهيز حفلة عيد ميلادها، وبعد نهاية اليوم فوجئت به أمام منزلها يحمل باقة الورد وصندوق الهدايا المغلف بشرائطه الملونة. كان يعرف ميعاده، بينما لم يخطر ببالها أنه يعلم ميعاد حفلها ولا مكانه، إلى أن أدركت تلك اللحظة التي أخذ فيها صورة لبطاقتها بتليفونه المحمول.

يمضي الوقت وتمر الأيام دون تذكر ذاك الخطأ الكامن في بطاقتها، وأصبح التواصل بينهما يومياً حدثاً مهماً لا بد منه.

عـادت هـي لملابسـها الحديثة وموديلاتهـا الشـبابية وقصـات شـعرها.

واسـتمر هـو كذلـك فـي محاولاتـه لأن يثبـت لهـا إصـراره علـى تغييـر نمـط حياتـه القديـم.

جلسات.. لقاءات هادئة.. مكالمات إلى مطلع الفجر.

إلـى أن أصبـح اسـمه مدونـاً ببطاقتهـا، فـي الأمـام: س. ف. ن. ي.. وفـي الخلـف الـزوج: م.ع. ل. بشـكل رسـمي..

سنّ الفيل

دائماً ما تأتيه حالة التذمر والغيظ من أصوات الرسائل المتكررة وهو نائم، أو وهو يصلي، أو وهو يتابع فيديوهاته المفضلة.

يظنها أحياناً رسائل مهمة، لكنه يكتشف أنها من هذه الجروبات المزعجة التي يجد نفسه مجبراً على البقاء فيها بين بعض زملاء العمل.

تنبثق نوافذ الرسائل متسارعة وكأنها في سباق، لكنه لا يبالي بها لاسيما حين يرى اسم الجروب.

يتابع هوايته في مشاهدة مقاطع اليوتيوب عن أصحاب القدرات الخارقة. المواهب النادرة. المخلوقات العجيبة. الأسرار الكونية. العوالم الخفية..

يجلس على كرسي الصالون، وإبهامه فقط يتحرك على شاشة الهاتف لفتح مقطع الفيديو أو لغلق الصورة.

ما زال صوت الرسائل يسبق ظهورها من أعلى الشاشة.

وفي لحظة يصادف ضغط إبهامه لفتح فيديو من فيديوهاته ظهور رسالة فيفتحها مضطراً.

الرسالة: كم تستطيع أن تدفع؟

يمرر إصبعه إلى الأسفل ليرى الرسالة السابقة..

ـ هل أنت جاد في كلامك؟

يتابع إلى الأسفل ويشاهد..

ـ مرتين في غرفة معتمة..

ـ كم مرة أستخدمه يومياً؟

ـ هل يمكنني إيجاده هنا؟

ـ هذا النوع غير متوافر بكثرة..

ـ هل كل هذه الأنواع بالأسعار نفسها كما في الصورة؟

• صورة

يضغط على الصورة فلا تفتح. يحتاج إلى الذهاب إلى إعدادات الهاتف وربط حساب «الواتس آب» بتحميل الوسائط.. هكذا نبّهه الهاتف..

• إعدادات الهاتف ـ الحسابات...

من ناحية أخرى تتلاحق الرسائل الجديدة، فتتحرك عيناه ما بين أعلى الشاشة، وأسفلها. يسرق نظرة نحو الرسائل تارة، ونحو تلك الإعدادات المعقدة تارةً أخرى.

لكنه لم يستطع الانتظار، فليذهب لفتح الرسائل.

الرسالة:

ـ وأنا أيضاً أريد كمية، وسأدفع ثمنها فوراً..

ـ سوف أرسلها لك بعد أسبوع حين تصل المخازن..

ـ متى سترسلها إن شاء الله؟

• خروج..

يذهب إلى الإعدادات ـ التطبيقات ـ تنزيل الوسائط.. اضغط (نعم)..

(نعم)

يذهب إلى الصورة ويفتحها..

«كروت أصناف» 100 سن الفيل ـ 250 لشجرة الصندل..

يغلق الصورة..

ـ أرسل لي الأسعار من فضلك..

ـ نعم جربتها أنا وجاري المحامي الكبير

ـ وهل وجدت منها فائدة؟

زادت سرعة إبهامه تاركاً إرثاً من الرسائل ليتحسس صورة أو شيئاً مختلفاً..

ـ شكراً.. هذا الفيديو يشرح كل شيء..

• فيديو

احتاج بضع دقائق لتنزيله ثم فتحه، ليجد بعدئذٍ أنواعاً من البخور العربي والآسيوي غير المعروف، مع شرح للفوائد وطرق الاستعمال.. انتهى الفيديو.

صباح اليوم التالي يذهب إلى عمله، ومن داخل مكتبه يتابع تحركات وأحاديث هؤلاء الموظفين أعضاء ذلك الجروب.

منعه منصبه داخل الشركة من التحدث معهم والاستفسار عن قصة البخور.

استدعى عامل البوفيه إلى مكتبه، وجعله يتجسس عليهم ليخبره بتفاصيل تلك القصة.

أخبره العامل أن هذا البخور غالي الثمن، وغير متوافر في الأسواق المحلية، بل يأتي بالطلب فقط من الخارج، والظاهر أن استخدامه يكون بشكل سري، فدائماً ما يأتي موظف التوصيل كل مرة ويسلمهم الكميات التي يطلبونها، وهو يخفيها داخل أكياس سوداء، دون أن يعلم أحد ما معه.

بدأ يتابع المحادثات التي تتم على الجروب باهتمام مختلف بشكل دائم، ومنها يواصل البحث عبر شبكة الإنترنت عن بعض تلك الأسماء المنتشرة داخل الجروب.

تعددت الصور.. الأسماء.. طرق الاستخدام..

بعدها وصل لبعض الموردين لتلك الأصناف من الخارج، فأخبروه أن هذا البخور يستخدم في أعمال السحر والجن وما يسمى العلاج الروحي، لكنه يأتي بالطلب لغلاء أسعاره ولمنعه من قبل الحكومات.

ظلت العلاقة والمراسلات بينه وبين المورد، وبدأ بتجهيز المبالغ المالية لتسلم أول شحنة من البخور لتبدأ أولى رحلاته على أرض الواقع مع ما كان شاهده في مقاطع الفيديو التي يحفظها.

دواء

الخامسة مساء..

جاحظ العينين يقف بمدخل العمارة يتأمل تذكرة الزيارة في يده اليمنى، وبالأخرى يمسك عبوة بلاستيكية يبدو أن بداخلها كبسولات دواء..

مرت ساعة من الثلاث لدكتور الأمراض النفسية الأمريكي، الذي يأتي لمدة ثلاثة أيام فقط، واليوم هو الأخير له، ولن يعود قبل ثلاثة أشهر.

أخبره الحارس أنه في الطابق (33)..

نظر إلى الحارس كأنه يشكو حظه لاستخدام المصعد..

استدعى المصعد بضغطة على لوحة الأزرار. فتح الباب، ودخل وحيداً يرتجف، وبأصابع ترتعش ضغط على (33)، لكنها جعلته ينتفض. يبدو أنه ماس كهربائي.

حاول أن يفتح الباب، لكن المصعد تحرك. أخرج من عبوته كبسولة فالتقمها، ثم جلس يحتضن ركبتيه.

مرت دقائق ساكنة إلى أن فتح الباب ليقفز واقفاً، فيكتشف أنه الطابق (27). ثم يجلس. ظل الباب مفتوحاً. لم يدخل أحد. يناجي ربه ألا يكون ثمة عطل بالمصعد. إضاءة المصعد والطرقات باتت ضعيفة حتى تلاشت..

أغمض عينيه كي لا يرى الظلام، واستبعد كذلك المشي فيه، إلى أن مر أكثر من ثلاث ساعات.

فلفل أحمر

هاتفها يرن.. رسالة «واتس أب»..

ـ حبيبتي سأحضر اليوم متأخراً بعض الوقت، هل لي أن أطلب منك طبق اليوم على الغداء؟

11.25ص

ـ نعم يا روحي.. من عيوني.. ما رأيك بصدور الفراخ مع الفلفل الأخضر والأصفر الرومي والبهارات الهندية والأرز البسمتي؟ أو شرائح اللحمة المتبلة على الجريل مع سلطات خضراء؟ أم تفضل الأكلة الشعبية.. البيض على الطريقة التركية.. من فترة بعيدة لم نأكلها.

11:28ص

ـ لا لا لا.. لا يروق لي ذلك.

11:35ص

ـ أوك.. سأرسل لك قائمة بأطباقك المفضلة التي تحبها.

11:35ص

صورة (1).. صورة (2).. صورة (3)..

ـ تمـام.. طبـق الأرز بالشـعرية والملوخيـة وقطـع اللحـم المحمـرة.

11:45ص

ـ عيوني يا روحي.. هل يذكرك هذا الطبق بشيء؟

11:45ص

ـ لا يمكنني نسيان ذلـك.. حيـن أعدنـا طهـي الأرز بسـبب نسيان الشعرية حتى احترقت، وانزعاجي من طريقة فرم الثوم القديمة والصوت المزعج من طرق هذا الإناء الخشبي. لماذا تحبين هذه الطريقة ولديك المفرمة الكهربائية؟

11:46ص

ـ هههههههههههه..

11:46ص

ـ هروبك من طقطقات اللحم عند تحميره وتطاير قطرات الزبدة على ذراعك. تذكرين كيف داويتك من ألمها؟

11:47ص

ـ أنت أكبر مجرم.. بْحبّك.

11:49ص

ـ هل لديكِ كل المكونات؟

11:49ص

ـ لا ينقصني شيء..

11:50ص

***

ـ حبيبتي.. حبيبتي.. آسف أريد أكلة بديلة.

12:10م

ـ هاااااااااا.. !!!!!

12:10م

ـ هههههههههه.. أنت تعرفين زوجك.

12:11م

ـ أريدك أن تطبخي طبق المحشي المشكل مع الفراخ المشوية والبامية الخضراء والمكرونة الباشاميل.

12:12م

ـ لكن هذا يستغرق وقتاً زيادة يا مجنون.

12:12م

ـ لا تقلقي.. أنسيت أنني سأتأخر؟ خذي وقتك.

12:15م

هذه الوجبة لها طابع خاص.

12:15م

ـ أوك.. أوك.. يعجبك منظري وجلوسك طوال الوقت تسخر مني هاااااا

12:15م

ـ بالضبط.. يعجبني هذا المنظر وأنت تفترشين الأرض، وتتوسطين تلك الأواني المليئة بالباذنجان وورق العنب والفلفل الرومي، وكذلك الإناء المليء بالأرز المخلوط بعصير الطماطم وورق البقدونس وحبات الفلفل الأسمر والشطة الحمراء. لا تنسي الشطة الحمراء.

12:20م

ـ أرى يديك مصبوغتين بالسواد الباهت.. لون الباذنجان.. أظفارك المطلية بلون خلطة الطماطم. مصمصة أطراف أصابعك تتذوقين الخلطات. ربطة طرحتك تعلو رأسك بعقدتها الأمامية.

12:21م

ـ نرفزتك من انفجار حبة الباذنجان قبل وضعها بالإناء. جنونك من أوراق العنب وهي تُفلت ربطتها. عيناك تطلقان شرراً حين أقرر مساعدتك فأختار كبس الفلفل الرومي.

أسمعك تدعين أن تهوي الرخامة السوداء بي، في حين أُخرج لك طرف لساني..

12:22م

12:23م

***

ـ حبيبتي.. بعد نصف ساعة سأكون عندك. تريدين شيئاً من (السوبر ماركت)؟

03:10م

ـ الخبز الناشف (المحمص).

03:11م

ـ لا تنسي أن تضعي المزيد من الثوم وحبات الكزبرة اليابسة للبامية الخضراء، وأن تشهقي عند تجهيزها، وأيضاً زوّدي البصل المهروس بالبهارات في خلطة الفراخ..

03:11م

ـ حاضر حبيبي.. وكذلك تحميص حواف الباشاميل.

03:13م

ـ رائحة الأكل تملأ أرجاء السلم.. أرى أننا على موعد مميز..

03:41م

ـ طاولة السفرة تنتظرك حبيبي..

03:42م

ـ زوجتي.. تذكرين تلك الرسائل وما بها؟ كيف ضاعت، وافتقدنا تلك الروح حين استعنت بالخادمة «نبيلة»!!

10:32ص

بورتريه

ـ شريف.. شريف.. شريف..

ـ نعم

ـ باقي أربع محطات لابن بطوطة أم خمس؟

ـ باقي ستّ محطات يا شاه زان.. قلت لك ثلاث مرات قبل ذلك.

هز شاه زان رأسه بطريقته الهندية..

ـ تمام.. تمام..

أكمل شريف حديثه مع جاره الزائر الجديد لدبي حول طقوس المعيشة في دبي، وأماكن الترفيه فيها. يشرح له ذلك من خلال المناطق التي يمر بها المترو بشارع الشيخ زايد. فمعظمها يظهر من نوافذ القطار.

ـ شريف.. شريف..

ـ هاااا.

ـ من كم سنة يعمل مترو دبي؟

ـ بدايته كانت يوم 9/ 9/ 2009

ـ هههههههههههههههه..

ـ على ماذا تضحك؟

ـ على صيغة التاريخ. ولأنني جاد في سؤالي.

ـ مممممممم. وأنا جاد في جوابي..

ـ المحطة القادمة.. هي.. شرف دي جي..

يردد شاه زان مع المذيع الداخلي للقطار مقلداً إياه بلهجته العربية.. تابعه شريف وهو يكزّ على أسنانه، لتكراره هذا كل محطة .

أخرج هاتفه لينشغل عنه إلى أن يصلا.

صوت صفير شاه، واهتزاز رجله باستمرار، جعلت شريف يتظاهر بأنه لا يعرفه.

وصل القطار رصيف المحطة.. فتح الباب.. دخل الركاب.. أغلق الباب..

ـ شريف.. شريف.. شريف..

وشريف لا يرد..

ـ انظر.. انظر.. انظر.. هذا الرجل الأوروبي..

لم يهتم لنداءاته واستغرق في النظر في هاتفه..

مد شاه يده لرأس شريف، وحركها باتجاه الرجل.

التفت فوجده هناك يقف بجوار الباب طويل القامة، من الممكن أن تقول إنه طويل جداً. لقد تجاوز إطار الباب وأصبحت عيناه في مقابل الخريطة التي وضعت لتوضيح خط سير المترو.

انجذب شريف لمظهره.. ترك هاتفه.. نظر لشاه زان وإيماءات التعجب تملأ وجهه.

إنه نحيف للغاية كطفل في السابعة. يسبح بساقيه النحيفتين وكتفيه الساقطتين داخل شورت رمادي، وتي شيرت أبيض. وجهه المستطيل يظهر جلياً حين يلتفت بزاوية جانبيه فترى كذلك أذنه القصيرة.

ـ إنه كالصور المرسومة التي تأتي دائماً في مجلات الكاريكاتير والحكايات الشعبية!!.

قال شاه زان..

ـ هههههههه.. بالفعل.. صحيح!!.

ـ شريف.. هل تتوقع أنه مريض نفسياً؟ لاحظ تحديقه المرعب من خلف نظارته التي سقطت لنصف أنفه الأحدب.

ـ لا.. لا أظن.. ربما لأنه سائح ويتعرف إلى الأماكن.

ـ لماذا يترك لحيته البنية تغطي ثلثي وجهه بكثافتها؟

ـ هسسسس.. يبدو أنه لاحظ تحديقنا به، وانزعج منا. كفى شاه زان.

ـ كيف يختار ملابسه؟ أظن أنه من الصعب أن يجدها بسهولة.

ـ لا تشغل بالك بهذا.. قلت كفى أسئلة.

عاد شريف لجاره العربي، بعدما سأله الأخير عن طبيعة عمله قائلاً:

ـ أعمل حالياً بوظيفة مشرف مبيعات بإحدى شركات الأدوية.

ـ وهل هذا الرجل معك؟

ـ للأسف معي..

لم يستطع شريف إلا أن يسرق بعض النظرات تجاه الرجل الأوروبي. تدور بذهنه أسئلة زميل العمل..

لماذا هو شارد هكذا لا يتحرك من مكانه؟ حتى هزة القطار لا تؤثر فيه.. ألأنه لا يملك هاتفاً ينشغل به لاستنفاد وقت الانتظار؟ لم لا يجلس على الكرسي الخالي أمامنا؟

ـ شريف.. شيء يتحرك داخل الشنطة التي يحملها خلف ظهره.. هل هو ساحر؟

ـ لا أدري.. ربما.. قم واسأله بنفسك كي ترتاح.

ـ لا لا لا.. هيئته مخيفة، ربما يباغتني بشيء لا أتمناه.

وتابع:

ـ أرى بعض البقع على قميصه. تبدو كأنها بقع طعام. هل هو طباخ في أحد المطاعم، أم أنه لا يستطيع التحكم بنفسه أثناء الأكل لمشكلة في قدراته؟

ـ ممكن.. ممكن طباخ بأحد المطاعم المنتشرة بدبي.

المحطة القادمة.. هي.. داماك العقارية..

يردد شاه يردد مع المذيع، وقد قطع بصوته تأمل شريف في شأن الأوروبي.

وقف القطار بالمحطة.. فتحت الأبواب..

إنه يتحرك باتجاه باب الخروج..

طأطأ رأسه كثيراً. انحنى ظهره بشدة. خطوات طويلة بين قدمين طويلتين وكأنه في طابور العرض العسكري، لا يلتفت لشيء. متجهاً بنظره ناحية السلم الكهربائي.

ـ ربما سنلقاه يوماً إما في أحد المطاعم إن كان طباخاً، أو مصادفة مثل اليوم. من المؤكد أنني سأتحدث معه في المرة القادمة. ستتضح لنا أمور كثيرة.

قال شريف..

ألوان باهتة

لوحة صغيرة رسمها الصغير بأنامله الرقيقة على باب غرفته من الخارج.

رسم فيها الأم داخل بيت صغير مغلق، بينما هو وأخته خارج هذا الإطار مع أبيهما.

هكذا اعتاد صاحب الأعوام السبعة على نمط من حياته لا يتغير.

كانت هالة تعيش حياة لم تتوقعها أبداً، بعد ما تخرجت في كلية الفنون مع أحلام كثيرة كانت تراودها..

سبعة أعوام على زواجها من طارق مدير الحسابات بأحد البنوك، لم تنعم خلالها بما كانت تحلم به من عمل معارض فنية أو حتى المشاركة فيها ونشر لوحاتها. بل إنها منذ زواجها لم ترسم إلا القليل منها. تفعل ذلك سراً بعيداً عن أعين زوجها وأبنائها.

في نهاية اليوم أوقات تمضي بين ضحكات وهمهمات

أطفالها البريئة، وبين زوج لا يعرف البيت إلا لنوم وأكل.

تسع ساعات تمر كالسلحفاة، تبدأ في السابعة صباحاً بخروجهم، وحتى عودتهم.

جدران مسكونة بأصوات أجهزتها المنزلية المزعجة التي تحتل البيت منعزلة عن عالمها الخارجي بنوافذ طلاها زوجها بألوان داكنة حتى لا يراها أحد من الجيران وخاصة الرجال. بينما الوحيد الذي يؤنسها صوت عصفور عايشها تلك اللحظات الصامتة، فيحركها قليلاً رغم سجنه الضيق.

تكرارٌ يصيب بالموت..

الساعة الحادية عشرة صباحاً.. انتصف اليوم..

تقف في وسط صالة الجلوس تتأمل كل شيء من حولها بحالة الرتابة التي اعتادتها. تذهب عينها للوحة الصغيرة تارة، ولقفص العصفور تارة.

اتجهت بخطوات متراجعة نحو غرفة صغيرها لعلها تجد شيئاً جديداً.

صندوق أصفر صغير وضعه بجوار سريره.

أمسكته ووضعته على سريره وجلست تفتحه.

أقلام ملونة.. أوراق رسم غير منتظمة.. أنابيب من الألوان الزيتية قامت بفتحها وشمها ثم شردت بفكرها قليلاً.. فرش..

صـور تلطخـت بالألـوان.. حافظـة نقـود بهـا صورتـان جماعيتـان للعائلة.

الأولـى لـم يسـجل عليهـا إلا اسـمه واسـم أبيـه، والأخـرى وضـع أوراقـاً لاصقـة علـى وجههـا!!

رسـم ألعابـه.. شـخصيات أفلامـه المفضلـة فـي كراسـة رسـم مليئـة عـن آخرهـا، وأخـرى بيضـاء بـلا رسـومات.

ابتسامة تعلو وجهها متسائلة:

ـ هـل هـي التي أورثتـه حبـه للرسـم، أم أنـه تعلـم الرسـم فـي المدرسـة؟ النتيجـة واحـدة.

وضعت كل شيء في مكانه.

قامـت ثـم ذهبـت لغرفتهـا إلـى خزانة تحـت سـريرها. أخرجت مجموعـة مـن اللوحـات القديمـة التي رسـمتها منـذ زواجهـا، ولا يعـرف أحـد عنها شـيئاً.

بـدأت تدقـق فيهـا الواحـدة تلـو الأخـرى. أخرجـت الألـوان.. الفـرش.. حامـل الرسـم.. وبـدأت فـي مـزج ألوانهـا وتنقيـح اللوحـات.

أمسكت هاتفها، وطلبت صديقتها سمية:

ـ الوو.. سمية كيف حالك؟

ـ الحمد لله بخير.. وأنت؟

ـ سمية.. هل لا يزال باب التقديم مفتوحاً بالمعرض؟

ـ نعم مفتوح.. ولكن زوجك؟

ـ لا تخافي.. أنا قررت تقديمها باسمك، ووقعتها باسمك أيضاً.

ـ كيف تفعلين هذا؟

ـ ما من حل آخر.. هذه اللوحات يجب أن تعرض.

بعد عدة أسابيع أخبرت زوجها أن لديهم دعوة حضور معرض للفنون التشكيلية من صديقتها سمية، وأنها فرصة لتلبية طلب صغيرهما المتكرر للذهاب لمثل هذه الأماكن.

في اليوم التالي ذهبوا للمعرض. أثناء تفقدهم الوحات رأت هالة السعادة على وجه ابنها وانبهاره باللوحات التي لا يعلم أنها لأمه.

وقفت في آخر القاعة تحاول أن تحبس دموعها، وهي ترى نظرات الإعجاب بلوحاتها والمباركات والتصفيق التي انهالت على صديقتها سمية.

ثم بدأ تسليم الجوائز والشهادات الخاصة بلوحاتها التي كتبت باسم صديقتها سمية، كان زوجها يصفق بحماس عند إعلان كل جائزة.

حذاء عسكري

بأصابع طويلة وملعقة عريضة يفصل حبات الفاصوليا عن مائها. هكذا اعتاد في الواحدة ظهراً أن يذهب إلى المطعم ليتناول وجبة الغداء.

وبينما هو يستمتع باصطياد حباته المفضلة يدخل عسكري يناديه.. قائد الكتيبة يطلب رؤيته بعد أن تلقى مكالمة مهمة من عائلته.

ترك مقعده مسرعاً، وهرع بجوارب رمادية داكنة، حتى إنه لم يبال بحذائه ذي القطعة المعدنية المحفور عليها اسمه ورقم تعريفه.

بعينين شاحبتين ألقى التحية العسكرية.

لاحظ القائد أثناء التحية فقده الحذاء، لكنه تدارك ذلك قائلاً:

ـ لقد تلقيت مكالمة من عائلتك تفيد بدخول والدتك المستشفى في حالة صعبة.. ولكن.. أنت تعلم.. غير مصرح لأحد بالخروج من المعسكر في هذه المرحلة الصعبة. الاستعدادات مهمة كما تعلم، ويجب أن نلتزم بهذا.

ـ تمام يا فندم..

أمر له القائد بحذاء بديل، فأخذه بين يديه متجهاً لعنبره. لم يبال بسخونة الأرض، وحباتها الصغيرة، ولا بنداءات زملائه وتحذيراتهم.

اتجه خلف عنبره يدخن سيجارته باضطراب، بينما يتابع من بعيد قدوم من يمكنه مساعدته.

رمى ما تبقى من سيجارته، وداسها برجله حتى اختفت داخل الرمال. ثم تحرك نحو عنبره للداخل.

صعد سريره العلوي. تمدد بجسده يفكر في أمر والدته في هذا التوقيت الصعب.

رسم بعينيه على سقف العنبر المعدني مشاهد لعلها تخفف قليلاً.

قاطعه زميله قائلاً:

ـ محمد.. حذاؤك في مكتب الأمانات، لقد وجدوه بالمطعم.

ـ مممممممم.. هل هو القدر أن يصادف مرضها المتكرر غيابي؟

ـ هل حاولت مع القائد مرة أخرى؟

ـ لا.. لكن لدينا مهمة خلال أيام.

ـ يجب أن تحاول مرة أخرى. ولو زيارة صغيرة لساعات قليلة.

ـ سأحاول مساء..

أخرج من حقيبته مفكرة صغيرة أضاف صورة والدته إلى غلافها من الداخل، يتصفحها فيتذكر المرات التي سجلها، ولم يرافقها في مرضها اللعين، مروراً بكتاباتها الرقيقة وأدعيتها المتكررة التي ملأت صفحاته.

تمر الساعات سريعة..

قاربت الشمس على الغروب، وحان موعد التدريبات المسائية الختامية.

يقف بترقب شديد ونظرات مرتبكة لمكتب القائد قبل أن يغادره.

وأخيراً.. حان الوقت.. الفرصة متاحة ليستأذنه مرة أخرى..

انفرجت سريرته بعد محاولاته، فقد أذن له باثنتي عشرة ساعة تبدأ من العاشرة صباح الغد.

إنها تكفي مؤقتاً.

خـرج متجهـاً إلـى مكتـب الأمانـات ليأخـذ حـذاءه. هـذا الحـذاء المفضـل لوالدتـه، والتـي دائمـاً مـا تنظفـه لـه وتلمعـه كل إجـازة. لكنـه وجـد المكتـب مغلقـاً. عـاد إلـى عنبـره ومفكرتـه ليسـجل وقائـع الزيـارة القادمـة.

صفحة بيضاء.. كتب..

«اليـوم الثلاثـاء التاسـع مـن تشـرين الأول عـام 1971 سـألتقي بـكِ يـا أمـي للمـرة الثانيـة منـذ خمسـة أشـهر».

أغلـق صفحاتـه ووضعهـا تحـت وسـادته، وذهـب مـع أحلامـه باللقاء.

❋❋❋

الساعة الخامسة فجراً..

يفتح عسكري باب العنبر ويضيء أنواره ليوقظ الجميع.

في عجالة ألقى العسكري البيان القادم من القيادة..

«قـرر رئيـس الأركان القيـام بحملـة عسـكرية مباغتـة صبـاح اليـوم الثلاثـاء التاسـع مـن تشـرين عـام 1971.. عمليـة رقـم 17».

بـدأ كل مـن فـي الكتيبـة يأخـذ مكانه فـي الاسـتعداد والانطلاق لتنفيـذ المهمة.

❋❋❋

فتح محمد صفحة جديدة في مفكرته. كتب:

«الآن سنخرج لمهمة عسكرية طارئة، وبعدها سوف أذهب إلى أمي متأخراً».

ثم طبع قبلة على صورتها وغادر..

***

مع دفء أشعة شمس الثامنة صباحاً اشتدت حرارة القتال بين الطرفين، بينما هو يرى أن خطوات تقربه لوالدته كلما انطلقت رصاصة أو سقط عدو..

يجري بين صفوف زملائه، كأنه يستعجلهم للنهاية.

يخرج من هذا الصف، ويدخل لتلك المجموعة.

وفجأة يظهر بياض في الأفق تزاحمه روائح زكية، وأصوات تنادي:

ـ محمد.. محمد..

لكنه لا يستجيب..

***

بقي ممدداً على الأرض. ثم حملوه إلى المستشفى العسكري داخل سيارة الطوارئ.

بعدها ظل هناك يرقد صامتاً بين أروقة الحجرة ملفوفاً ببياض ناصع يخفي جروحاً أدمت جسده..

***

والدته ترقد بقناع التنفس الصناعي وأجهزة المتابعة الطبية برناتها الرتيبة، دون وعي بما يدور حولها.

مر الأسبوع الأول، وحين أفاقت خطفت بصرها لمعة القطعة المعدنية التي يحتضنها حذاء محمد.. الحذاء الذي كانت تحرص دائماً على تنظيفه وتلميعه.

ظلّت تحملق في الحذاء تضمه إلى صدرها، وتتحسس حروف اسمه المنقوشة على المعدن الفضي..

داء

ظل يصرخ طوال الليل. هي تقف أمام النافذة بمحاذاة باب الغرفة. تراه من بعيد يتألم، ثم تحدق في الفراغ تستشعر بزوغ العدوى التي أصابتها بسببه، ثم تنظر إلى حقيبتها.

صوته يزداد ألماً، فتلتفت نحوه كأنها لا تراه. تمرر إصبعها الوسطى حول دبلة زواجهما. تحتضن الحقيبة. تضمها لصدرها بشدة. تتمتم ببعض الكلمات باتجاه الفراغ.

أخرجت عبوة صغيرة شفافة بعض الشيء يبدو أنها بللت ملصقها الورقي لتمحو معالمها. إنه آخر ما تبقى في سوق الأدوية. تظهر داخلها ثلاث كبسولات دواء.

قالت بصوت مفهوم تحدث الفراغ أيضاً:

ـ يجب عليه أن يبحث عن علاج بديل..

الساحر

أناقة معهودة. ورائحة نفاذة. ونقرات حذائها المتسارعة خطفت أنظار طاقم العمل، فاليوم هو الأول من تصوير الفيلم الوثائقي المثير.

قاعة كبيرة بسقف مرتفع، وأضواء كثيرة، وأسلاك ملقاة على الأرض، وإحساس الرغبة الذي يسبقه الخوف. عيون شاحبة تراقب كل تفاصيل القاعة تبحث عنه، كأنها المرة الأولى التي تقوم فيها بالإخراج والتصوير.

اليوم سيسدل الستار على أسئلتها التي لازمتها منذ الطفولة عن قدرة هذه الشخصية الخارقة، والتي لا تراها إلا في صور رمزية بين خدع بصرية وحركات فريدة تعجز عن تفسيرها وقراءتها عقلياً.

وكأنها تشكر القدر الذي جعلها في هذه المكانة.

في المقابل يجلس هو في هدوء داخل غرفة مغلقة يستجمع قواه، ويرتب ملابسه الخاصة، أو ربما يجهز أدواته

اللازمة. وبربطة عنق عريضة على غير المعتاد وقف أمام المرآة يلقي النظرة الأخيرة.

أثارها صوت بابه عند خروجه، فالتفتت بنظرة استكشافية متبادلة، ثم جاءت جلسة منفصلة جمعتهما أخبرته خلالها بخطوات ومحتويات المشاهد، بالإضافة إلى بعض التعليمات، فيما هو ينصت ويرمقها بنظرات إعجاب.

أخافتها تلك النظرات، وهذه القامة الطويلة، والعيون السوداء اللامعة، والأصابع الخفيفة.

ماذ يخبئ وراءها؟

بينما هو يفكر.. كيف يتعامل مع هذه الأنيقة الجميلة ذات الطابع القيادي؟ وهل ستتجنب سؤاله عن كل شيء؟ وماذا لو حدث..؟

كلها علامات استفهام تملأ الفضاء الشاسع بينهما.

***

الجميع يتحرك بكل جدية. إشارات تعني الالتزام بالأماكن، وهي لا تفوت لحظة دون أن تراقبه.

في مكانه يستعد للبداية، ويهيئ نفسه. وحين أعطته إشارة البدء لاحظ الجميع أثناء التصوير شدة ارتباكها، مما جعلها تعيد تصوير المشهد أكثر من مرة دون سبب معلن.

هكذا.. طوال المشهد الأول تتابع كرات تحولت إلى قطع من القماش المتصل، وأقلاماً اختفت، وأوراقاً صارت رماداً.. وكل هذا لا يبهرها بينما الجميع يصفق.

استراحة بين مشاهد التصوير.. طلبته لتناول بعض المشروبات..

طاولة مرتفعة.. وكراسٍ دوارة.. بادر بسحب مفرش الطاولة من تحت كؤوس البرتقال، ففتحت عينيها دهشةً.. العينين البنيتين بكامل استدارتهما.

تبادلا الحديث حول مهارته، وخفة يديه، وقوة التركيز التي يمتلكها، وبعض الأسرار الخفيفة في عالم السحر.

قاطعهما مساعدها منبهاً لضرورة الاستعداد للمشهد التالي.

خلال المشاهد التسعة التي تم تصويرها، كانت ملامحه الحادة، وشاربه العريض المتصل باللحية كراعي البقر، تمثل لها الرجل المرعب الذي لا يعرف لين التعامل، ولا يهتم للغة الإنصات.

في حين يرى هو أنها تخفي جمالاً ورقة خلف ذلك الصوت العالي وحدة المشاعر والتجاهل لما هو خارج نطاق العمل وتصنع القيادة. الأنف المنبثق بين نقرتين على الخدين، وفمها الصغير، وبؤبؤ عينها اللامع؛ من المؤكد أن

هـذه الملامـح تخفـي جمـالاً آخـر يختلـف عمـا هـو ظاهـر..

بـدأ كلاهمـا يرسـم فـي ذهنـه شـخصية الآخـر، وبشـكل أكبـر مـن خـلال المشـاهد التسـعة السـابقة بيـن إعـادات واسـتراحات تخللتهـا مناقشـات فـي أمـور شـخصية.

***

ـ المشهد رقم 14 أول مرة.. أكشن..

ظهـر بعـض الارتبـاك عليـه هـذه المـرة، بينمـا تحـاول هـي تـدارك ذلـك بابتسـامة وإشـارة بالتشـجيع والاسـتمرار دون النظـر لأخطـاء التصويـر والتسلسـل الـذي يقـوم عليـه الفيلـم.

ينظـر إليهـا كثيـراً يتابـع تحركاتهـا وأوامرهـا لمـن حولهـا مـن طاقـم العمـل.

بـدأ يترجـم مـا تفكـر بـه قبـل أن تشـير إليـه، واسـتمر هكـذا إلـى آخـر المشـهد حيـن أخـرج منديـلاً مرسـوماً بقلـب، ولـوّح لهـا فتبسـمت.

اسـتراحة معتـادة. هـذه المـرة تطرقـا لبعـض القصـص الشـخصية التـي أظهـرت جوانـب طباعهمـا الحقيقية.

تغيـرت طريقـة الحديـث، فقـد تخليـا عـن الألقـاب المبتذلـة أثنـاء الحديـث.

تعددت الجلسات.. ضحكات.. استعطاف.. تواصل ازداد حماسةً.

باغتها ذات مرة كأنه يظهر بعض مواهبه، لكنه كان يقصد جذب قلبها حيث أخرج وردة من بين يديها ووضعها بين خصلات شعرها.

***

المشهد رقم 23 .. أول مرة ...أكشن

على مسرح التصوير يحاكي قصة بطريقته الخاصة، حيث وضع مجموعة كتب على طاولته، وبدأ يحرك يديه في الفراغ مرات عدة وينظر باتجاهها، ثم يلوح بيديه كأنه يمسح على وجهه ويغمض عينيه، فتغمض عينيها هي الأخرى، ثم أخرج كتاباً يطابق كتابها، وأشار إليها أن تفتح كتابها الذي أمامها لترى ورقة صغيرة كتب عليها: أحبك..

يمضي السكون

عيناه شديدتا السواد، وحاجباه كثيفان. أنف وفم عريضان، بشرة دهنية برّاقة دائماً. أملس الخدين. شعر غزير رغم وجود بقعة خالية جراء إصابة قديمة بالثعلبة.

تعامله مع الناس كالأيام، لكلٍّ اسمٌ وتاريخ لا يتكرران.

ينادونه «بالمثقف»!!

أستيقظ دائماً على صوته وهو يصيح على صبي القهوة لرفضه الجلوس على كرسي من البلاستيك. لا أعلم لماذا يعانده هذا الصبي كل مرة، رغم أنه يعلم بغضه هذا الكرسي، وينتهي الأمر كل يوم بإحضار الكرسي الخشبي من المخزن الخاص بالقهوة. ليست هذه مشكلته الوحيدة، فبعدها بدقائق معدودة يُحضر له الشاي في فنجانٍ بينما هو يفضله في كأس زجاجية مع ورقة النعناع الخضراء من دون سكر. لم أره في حياتي يغير هذه النكهة المرة.

يراقب المارة أمامه، يعطف على هذا بنظرة، ويسخر من

تلك بإشارة دون أن يتلقى أي ردود أفعال غاضبة، وفجأة امتلأ وجهه بابتسامة عريضة أظهرت نواجذه البنية وهو يلتفت إلى الناحية الأخرى. لم تدم الابتسامة طويلاً، رجع بعدها واضعاً يديه على بطنه الممدود، ومحركاً رجليه باهتزاز بطيء. لا أحد يلقي عليه السلام رغم تحديقهم المتبادل خوفاً من أسئلته المحرجة. يمر الوقت بانتظار جريدة الأخبار اليومية مع بائع الجرائد الذي يأتيه دائماً متأخراً.

يخرج حافظة النقود، ويحاول إخفاء العملات الصغيرة حتى لا يأخذها منه. ويخرج أوراقاً نقدية كبيرة حتى يتمكن من تغييرها، فيحتار ذلك البائع المسكين في إيجاد المتبقي بعد أخذ ثمن الجريدة. لا يمل هذا طيلة حياته، وكأنها هواية يمارسها، حتى أصبح منبوذاً من أصحاب المحلات والبقالات أيضاً.

ترك الجريدة على الطاولة. التفت جانبه، وأمسك بحقيبته السوداء الصغيرة التي يصطحبها معه دائماً في كل مكان. أخرج نظارته الصغيرة، فيما كان صبي القهوة يضع كأسه المفضلة أمامه. لبس النظارة، وأخذ الجريدة بين يديه يستعرض صفحاتها على نحو سريع مكتفياً كما يبدو بالعناوين العريضة.

لم يلبث كثيراً حتى بدأت ملامحه تترجم علامات تعجب واستفهام. التقط قلمه، يكتب شيئاً، ثم يعود يطأطئ رأسه

متابعاً المارة من فوق إطار نظارته، ثم يواصل القراءة في سكون وهدوء. وتمر الدقائق ولم يرتشف مشروبه، حتى إنه لم ينتبه له.

اكتظت القهوة بزوارها لا سيما المتقاعدين. زادت الأصوات ما بين نداءات وطرقات الملاعق وألعاب النرد المختلفة، واكتسى سقفها بسحابة رمادية ذات روائح مختلطة. استقام واقفاً. تغيرت ملامح وجهه. ظهر عليه الاستعجال والارتباك. أخذ حقيبته الصغيرة، وهرول مسرعاً باتجاه منزله. ترك نظارته وكأسه تصنعان خطوطاً من ضوء تعامدهما مع أشعة الشمس.

لم يكن ينسى شيئاً من قبل!!. دائماً ما يتسم بقدرته على ترتيب الأمور.

حدث عظيم هزّ وجدانه.. مؤكد!!

دخلتُ حمام القهوة، وبينما أفكر قليلاً في حاله، سمعته يصيح كعادته، فخرجت أنظر إليه. رأيته جالساً في مكانه يواصل قراءته بسكونه المعتاد بعد أن لبى له صبي القهوة طلباته، مصطحباً على طاولته صندوقاً رمادياً منقوشاً بكلمات وحروف غريبة، بينما أتى صبي القهوة بكرسي آخر جعله يعدّل مكانه أكثر من مرة حتى استقرّ!..

كهلاً وسهلاً

كان لي صديق عجوز..

دائماً يقول لي إنه لا يشعر بفارق العمر الكبير الذي بيننا، ثم يقول لا أعلم لماذا نحن أصدقاء؟ هل لرشدك أم لفوات عقلي؟.. ثم يضحك بصوت عالٍ.

يخرج دائماً في السابعة صباحاً متجهاً إلى دكانه، هكذا يصححها لي، فلا ترضيه كلمة «محلّ» قائلاً:

ـ دكانة حارث المكوجي.. دكانة حارث المكوجي يا بتاع العلام «يقصد التعليم».

لا يستطيع تحريك أبوابها من أماكنها، فيظل ينتظر أحد المارة لكي يساعده على فتحها.

الأعوام الأربعون التي قضاها في هذه المهنة أخذت من صحته وعمره، وجعلت من انحناء ظهره علامة تعرفه بها وإن رأيته من بعيد، لكنها لم تمح ثرثرته غير الجادة التي تتخللها ضحكات من القلب يوزعها على المارة.

يستهل يومه بعبارة «قوينا يا رب على يوم جديد»، ثم يعلق سلسلة المفاتيح الثقيلة بجوار الباب.

يبدأ بتنظيف الرصيف الذي أمامه، ورشّ بعض المياه التي يعتقد أنها تجلب البركة والرزق في المكان.

ولا ننسى فنجان القهوة الصباحي من عمل يديه..

مع فنجان القهوة يستمع إلى إذاعة البرنامج العام بالراديو حيث نشرة الأخبار والمقدمات الغنائية للبرامج التي تذكره دائماً بالماضي وأيام الصبا. يجلس بانتظار صديق الطفولة «عم توفيق» ليشاركه الذكريات والآهات على زمن ولّى، والضحكات التي تظل بالساعات إلى أن يذهب «توفيق» في النوم جالساً على الكرسي قبل أن يشرب قهوته.

«توفيق» لا تستطيع أن تفرق بينه وبين «حارث» فيلقبان بالتوأم. كلاهما بعيون رمادية غائرة.. شعر أبيض.. انحناءة الظهر.. طول القامة.. بياض البشرة.. وجه مستطيل بأنف طويل.

لا يختلفان إلا في نبرة الصوت وحجم الأذن وكثرة النسيان التي يتصف بها توفيق.

الساعة السابعة والنصف. بدأت الشمس تدخل دكان حارث. فترى من خلالها بيوت العنكبوت التي ملأت أركانه، وخيط النور التي كشفت عن ملايين من ذرات التراب تمتد من فتحات الشبابيك التي اعتلت الباب.

حان وقت لقائي به..

آخـذ ملابسـي التـي أود كيّهـا، وأذهـب إليـه مصطحبـاً قلمـي وأوراقـي، فهـو بالنسـبة لـي الملهـم فـي اختـلاق القصـص. فـأول قصـة كتبتهـا كانـت علـى يديـه.

ـ صباح الخير عليكم.. إزيك يا عم حارث؟

ـ أهلاً.. أهلاً.. أستاذ أحمد..

ـ اليـوم واضـح إنكـم «مبسـوطين».. ضحكاتكـم نسـمعها مـن آخـر الشـارع.

ـ مـا أنـت عـارف عمـك توفيـق ذاكرتـه ضايعـة، إلـى الآن يعاتبنـي علـى ملابسـه التـي ضاعـت، ونسـي أنـه أخذهـا. مـش أنـت كنـت موجـود؟!

ـ نعم.. أنا فاكر إنه أخذها.

ـ طيـب قولـه علشـان هـو محتـاج يتعالـج هههههههـه وخلـي النـاس تتفـرج علينـا.

ـ هو كدا من زمان بيحب يغيظك.

وهكـذا تبـدأ رحلتـي مـع عـم حـارث.. حكاياتـه لا تنتهـي عـن شـبابه.. شـقاوة الصبـا.. غـلاء المعيشـة.. عزمـه أكثـر مـن مـرة لتـرك مهنتـه الشـاقة، لكنـه فـي الأخيـر يخضـع لجملتـه الشـهيرة: «عشـرة عمـر يـا ابنـي».

حيـن سـألني منـذ أشـهر عـن كتابتـي القصـص «يسـميها هـو الحـكاوي» وعـن كيفيـة الكتابـة، أخبرتـه أن البدايـة كانـت معـه هـو، ومـن كلماتـه التـي يخرجهـا مـن قلبـه دون تصنـع. دائمـاً أتذكـر جملتـه الشـهيرة أن وراء مـا فـي الطبيعـة قصـة.

جلسـاته الكوميديـة.. عملـه الشـاق رغـم هوان جسـده.. مشـاجراته مـع صديقـه دائـم النسـيان.. حتـى زبائنـه الدائمين.

بـل وأيضـاً مـن القصـص التـي سـمعتها منـه واكتشـفت أنهـا مـن وحـي خيالـه.

وحين علم بصدور كتابي هذا سألني:

ـ هل كتبت عني؟

ـ نعـم.. كتبـت عنـك آخـر قصـة فـي الكتـاب اسـمها «كهـلاً وسـهلاً»..

تبسـم عنـد سـماعه الاسـم أو ربمـا لسـعادته بأننـي كتبـت عنـه، لكنـه لـم يطـاوع فضولـه للسـؤال عـن معنـى الاسـم أو سـببه.

ثـم أوصانـي بـأن أقـرأ لـه القصـة فـي أقـرب وقـت.. حتـى أنـه كافأنـي فـي هـذا اليـوم ولـم يأخـذ منـي أجـرة الكـي.

قارئي العزيز..

اعلـم أنـك شـخص فـي غايـة الأهميـة بالنسـبة لـي.. فحيـن قـررت اقتنـاء هـذا الكتـاب أو حتـى قراءتـه قـراءة عابـرة، فقـد

أردت من هذه القصة تعريفك بتجربتي في كتابة القصة. عن كيفية الكتابة، وعن الأجواء التي نعيشها في كتابة القصة حتى ينتهي بها الأمر بين يديك، ولا أخفيك سراً إن «عم حارث» رغم أميته كان يعطيني نصائح عظيمة لتجاوز بعض العقبات التي تواجهني أثناء كتابة القصة، أو عند توقفي عن مواصلة الكتابة.

قارئي العزيز.. دعنا نهنئ معاً «عم حارث» بلقبه الجديد «كهلاً وسهلاً»..